Al Hayat - 21 Juin 90

في بلاد غورباتشوف (٣ من ٤)

من يحكم في موسكو؟

غسان سلامة *

■ الرجل الاول في الكرملين منذ خمس سنوات ونيف اسمه ميخائيل سيرغيفيتش غورباتشوف، المعروف بالعلامة السوداء المرتسمة على راسه شبه الاصلع، وباناقه وجته رايسا، وبظهوره المتكرر على غلافات المجلات العالمية. ومنذ خمس سنوات ونيف لا يمر اسبوع واحد من دون ان يعلمنا خبير، متمرس في مجاهل الكرملين بان الرجل هذا على وشك السقوط، منهياً قيادته للبلاد في انقلاب عليه، يقوم به رفاقه في الحزب، او مناهضوه في الجيش، او اعداؤه في المخابرات. ولقد دخل رسامو الكاريكاتير الاميركيون اخيراً في تنافس (فني محض طبعاً) لتصويره معلقاً بخيط رفيع في الهواء، او واقعاً في فجوة مفتوحة في اسفل مكتبه، او مغادراً الى كاليفورنيا حيث يقول لنا البعض ان له بين الاميركيين من المناصرين اكثر بكثير مما له في بلاده.

لكننا لا نعود من موسكو بهذه الصورة على الاطلاق. الرجل يواجه ولا شك مصاعب على كل الجبهات الداخلية والخارجية، لكننا لم نلمس له بديلاً سياسياً حقيقياً، ولا راينا بين منتقدي بيريسترويكا من نظم نفسه لانهائها واحتلال الموقع الاول. اوليس من الطبيعي ان يضطر غورباتشوف لمواجهة لائحة طويلة من المعارضين والمتافسين والمتضررين في الحزب والجيش والادارة، بينما يسعى لبناء نوع جديد من السلطة؟

والاسابيع الاخيرة كانت حاسمة فعلاً في تكوين السلطة السوفياتية الجديدة. بدات المواجهة في شهر شباط (فبراير) ١٩٩٠ عندما بادر غورباتشوف للدعوة لنظام رئاسي قوي تدعيما لموقعه. كانت السلطة تبدو مهلهلة فعلاً: القوميات تتمرد، والجيش يبدو غير فعّال، والطوابير تطول امام المخازن، واي كلام عن الاوضاع كان يبدأ بشتم الرجل الذي هز نظاماً هرماً من دون ان يتمكن من استبداله. في هذا الوقت كان البرلمان السوفياتي (٢٠٢٠ عضواً)، وبرلمان جمهورية روسيا (٧٥٠ عضواً)، وكلاهما انتخبا سنة ١٩٨٩، يعجان بالتيارات المتناقضة والاتجاهات المختلفة. وكانت القاعدة ان السلطة صارت للبرلمان، وهو تعبير لطيف جداً عن بزوغ فجر الديموقراطية. لكن البرلمانات لا تحكم، ولا تطور، ولا تصلح في روسيا ولا في غيرها من البلدان. انما الحاجة، في الظروف الحرجة، الى سلطة تنفيذية قادرة على المبادرة، بينما تكتفي البرلمانات، حتى الديموقراطية منها، بالتشريع والرقابة.

في موسكو، كما في الخارج، كانت الصورة الرائجة ان الاتحاد السوفياتي، اصبح بلاداً من دون حاكم فعلي، وان اروقة الكرملين فارغة إلا من شبح لينين وستالين وبريجنيف. ولم يكن غورباتشوف قادراً على مزيد من المماطلة، فما كان منه إلا ان اخذ المبادرة لانشاء نظام رئاسي. احتج عدد كبير من البرلمانيين، وغضب عدد كبير من الليبراليين... لكن التعديل الدستوري مر باكثرية كبيرة (١٥٤٢ مع/ ٣٦٨ ضد/ ٧٦ امتناع). ثم تم انتخاب غورباتشوف رئيساً للبلاد باكثرية ٦٠ في المئة من الاصوات (١٣٢٩ صوتاً). وامسى غورباتشوف بمفرده قادراً على اعلان الحرب، واصبح قائداً اعلى للقوات المسلحة، وقادراً على فرض الاحكام العرفية او قانون الطوارئ، وعلى اصدار قرارات رئاسية نافذة في المجالات الاقتصادية والاجتماعية.

ولم يقف غورباتشوف عند هذا الحد، فما كان منه الا ان بدّل في المكتب السياسي للحزب الشيوعي، فاضعفه الى درجة انه استطاع القول في نيسان (ابريل) ١٩٩٠ ان المكتب السياسي لم يعد يقود الاتحاد السوفياتي. وصادفت هذه التغييرات في قمة السلطة عدداً من الانتخابات النيابية والبلدية، وكانت النتيجة عملياً لمصلحة التيار الديموقراطي في كل مكان، اذ فاز هذا التيار بـ ٨٠ في المئة من المقاعد في لينينغراد وبـ ٦٠ في المئة من المقاعد في موسكو. واستطاع الليبيراليون بالتالي السيطرة على بلدية العاصمة موسكو. وبدا ان الاحزاب السياسية قد تنوعت وتعددت، وان الحزب الشيوعي اصبح حزباً عادياً بين الاحزاب، مهما ردد قادته من مقولات عن دورهم الطليعي. وقد ابرز هذه الهامشية الجديدة استطلاع للراي بيّن ان ٦٠ في المئة من الناس يعتقدون ان الحزب الشيوعي قاد البلاد في الاتجاه الخاطئ وان ٩٠ في المئة منهم يرون فيه المسؤول الاول عن الازمة الاقتصادية الخانقة.

وهكذا انقلب الوضع راساً على عقب، فبينما كان غورباتشوف، حتى انتخابات الربيع، مهدداً من على يمينه (من قبل عتاق الحزب ودهاقنة البيروقراطية) اصبح مهدداً من على يساره (من قبل القوى الديموقراطية والليبيرالية الحريصة على تسريع الاصلاح والانتقال لنظام تعدد الاحزاب والسوق الحرة). فما كان منه الا ان حاول ايقاف الحركة من خلال منع انتخاب يلتسين رئيساً لجمهورية روسيا. لكن محاولته هذه فشلت، وانتخب يلتسين رئيساً ولو بفارق صغير من الاصوات، وما كان من رفيق غورباتشوف، الذي اصبح خصمه اللدود، الا ان بادر باعلان روسيا مستقلة وقوانينها نافذة ان هي تناقضت مع قوانين الاتحاد.

وبدا في الواقع ان غورباتشوف الذي استفاد لفترة طويلة من تفتت منافسيه على تيارات شتى، اصبح له في يلتسين خصماً قوياً، وبديلاً ممكناً. وذهب غورباتشوف في هذا الجو المشحون الى الولايات المتحدة، يبحث في حسن استقبالها له، اثار صدمة نفسية عنيفة تلقاها في يوم عيد العمال، حين ارغمه مئات من المتظاهرين الصاخبين على مغادرة موقعه البارز على اعلى نصب لينين التذكاري في الساحة الحمراء، وعلى الالتجاء داخل اسوار الكرملين، الذي دخل اليه من باب خلفي صغير مخفي وراء نصب لينين.

كانت اقامتنا في موسكو خلال هذه الفترة الحرجة بالذات، تلك التي تلت حادثة الساحة الحمراء المتلفزة في انحاء العالم، وانتخاب يلتسين رئيساً لروسيا، والليبيرالي بوبوف رئيساً لبلدية موسكو، والغاء المادة السادسة من الدستور التي كانت تضع الدولة في امرة الحزب الشيوعي، وتهجم الميليشيا الارمنية على الجيش السوفياتي، ونشوب النزاع الدامي بين الاوزبك والقرغيز، ورفض واشنطن اعطاء الاتحاد السوفياتي حق الدولة المفضلة في التبادل التجاري. لكن الاسوا كان يتم في شوارع موسكو نفسها. ذلك ان رئيس الوزراء، في مبادرة غبية سياسياً، قام باعلان قرار برفع الاسعار في مطلع تموز (يوليو) المقبل، فما كان من اهل موسكو الا ان تدافعوا هائجين على المخازن وتخاصموا للحصول على القليل الضحل من الماكولات والبضائع المعروضة فيها. واضطرت السلطة للعودة الى القرارات البيروقراطية، فاصدرت تعميماً بحصر البيع في مخازن موسكو باهلها دون غيرهم من سكان الضواحي والمحافظات فعمّت الرشوة اكثر مما كانت في السابق، وانخفض سعر الروبل في السوق السوداء، وقام بعض المناطق بوقف امداداته بالبضائع لاهل العاصمة... وكانت الاحداث هذه تشير الى التخبط الدائم في القرارات، والعجز الواضح عن استباق ردود الفعل الجماهيرية، ناهيك عن انعدام تام في خبرة التعامل الديموقراطي مع مضاعفات الازمة الاقتصادية. وكان الاسم الذي يتردد على كل الشفاه واحداً: غورباتشوف، الساحر الفاشل، القائد غير المجرّب، المصلح الهاوي.

ولا ريب ان هناك قدرا من الارتجال في ما يقدم عليه الرجل: في الاقتصاد، في السياسة، في المسالة الالمانية، في مسالة القوميات وفي غيرها، يبدو غورباتشوف وكانه يبحث دائماً عن مبادرة جديدة، عن ارنب آخر يخرجه من قبعته الرمادية. وعندما ساله مراسل تلفزيوني مؤخراً عن برنامجه اجاب «انه يثق بالروح الخلاقة عند الجماهير»، وتعبير كهذا لم يعد يثير الا الهزء والسخرية في نوادي موسكو السياسية المتعددة كالفطر بعد المطر. وياخذ عليه كثيرون انه ضحى بنفسه بالاداة الفعالة لتحقيق مشروعه. فالبلاد الروسية لم تشهد اصلاحاً الا على يد طغاة قاهرين من بطرس الاكبر الى كاترين، وحتى ستالين. وكانت هذه على الارجح فكرة اندروبوف، الذي جاء بغورباتشوف من معقله الريفي الى العاصمة ودفعه الى الواجهة. كان اندروبوف مؤمناً بضرورة اعادة البناء الاقتصادي، لكنه كان يميل، ربما بصورة مشابهة لما حصل في الصين، للتوصل اليه بقرارات من فوق، وبتنفيذه من خلال الاجهزة الحزبية والعسكرية والامنية القائمة.

اما غورباتشوف، فقد بادر الى تحطيم هذه الاجهزة بينما هو يسعى الى تحقيق ثورته الاقتصادية. فالحزب الشيوعي اصبح حزباً بين الاحزاب، منقسماً على نفسه، تعتمل فيه التيارات المتناقضة، بينما الغى البرلمان علاقته العضوية بالدولة. ولم يكن الرجل يدرك على الارجح ان تهميشه للحزب سيضعف الدولة السوفياتية نفسها، لانها نشات منذ ١٩١٧ صنواً، وتابعاً، واداة في يد الحزب. واتى غورباتشوف ليكتشف ان المس بالحزب لم يحرر الدولة من ربقة الحزب، وانما قضى عليها، لانه لم يكن لها وجود الا بالحزب ومن خلاله. فاضطر آنذاك لتناسي مهمة بناء الاقتصاد والانكباب على اعادة خلق الدولة، الدولة المستقلة عن الحزب، الدولة الضابطة للمجتمع. وكان هذا يعني انشاء مؤسسات جديدة من الصفر، كالبرلمان والرئاسة والحكومة والبلديات، وكلها كانت حتى الساعة مجرد اسماء مختلفة لاسم واحد جوهري هو حزب لينين وستالين.

واكتشف السوفيات آنذاك ان لا دولة لهم ولا قانون، وهم بالفعل يخلقونها اليوم من العدم. لذلك ترى المؤسسات الوليدة في حالة من انعدام الوزن، فانت لا تعلم فعلاً اذا كانت ستبقى او ستزول، ولا يمكنك التنبؤ بدورها. ولم يعد للسلطة السوفياتية اسم واحد، ولا عنوان واحد، ولا شرعية واحدة، ولا جهاز واحد فهي سلطة متنقلة من جهاز الى آخر ومن مؤسسة الى اخرى، ومن رجل الى آخر. هي سلطة مراحل المخاض، التي قد تؤدي بالاتحاد السوفياتي نحو حياة ديموقراطية مستقرة... او الى الفوضى الشاملة.

المتشائمون، نعلم جميعاً رؤياهم: انها الفوضى لفترة من الزمن، تليها سلطة ديكتاتورية متجددة، على راسها غورباتشوف نفسه، او واحد من منافسيه غير المنظورين في الجيش او في المخابرات او في الحزب. والمتفائلون رايهم معروف ايضاً: انها مرحلة انتقالية تتم من دون اراقة الكثير من الدماء، ومن دون تصفيات جماعية ومن دون حرب اهلية. ولا اقول ان الناس في موسكو منقسمين بين متفائل ومتشائم لان الواقع مختلف. فالوضع على كف عفريت، والاهواء متقلبة والمتفائل عند الفطور، متشائم عند العشاء، والمتحمس للبيريسترويكا منذ اسبوع، مدبر عنها اليوم. اما بوريس يلتسين، الذي يرى فيه البعض البديل الطبيعي للرئيس الحالي، فهو ايضاً متقلب كغيره: يطالب باقتصاد السوق منذ شهر، ويدافع عن حقوق العمال اليوم. وان كان غورباتشوف ارتجالياً في غير موقع، فان يلتسين يبدو سيد الارتجال بعينه، ولو ان بعض محازبيه من اصحابنا، وهم يعترفون بضعف ثقافته السياسية، وبميله المعروف للفودكا، اكدوا لنا بالحاح شديد، «انه يتحسن يوماً بعد يوم».

هل يذهب غورباتشوف او يبقى؟ نجيب على السؤال بآخر: من يهمه فعلاً اذا بقي الرجل او رحل؟ الأمر مهم له طبعا، ولزوجته الحسناء التي يبدو انها تتمتع بمزايا السلطة الاولى، ناهيك عن حلفائه ومساعديه الذي سيؤدي رحيله الى رحيلهم. اما الاتحاد السوفياتي، فهو في الواقع قد امسى في مرحلة من تعدد مراكز السلطة، ومؤسسات القرار، بحيث اصبح ذهاب الرجل او بقاؤه اقل اهمية بكثير من السابق. ويقيني انه من الخطا المميت اعتبار الخمس سنوات المنصرمة وكانها هامش مرحلي من حياة الاتحاد السوفياتي يمكنه بعدها العودة الى ما كان عليه في السابق. ويقيني ايضاً ان الذين ينتظرون عودة الستالينية الى موسكو قد يفارقون الحياة قبل رؤيتها تعود. فالذي حصل في الاتحاد السوفياتي هي ثورة جذرية على الماركسية، وعلى الحزب اللينيني الواحد، وعلى سيطرة العنصر الروسي على ١٥ جمهورية تابعة، وعلى بيروقراطية متعفنة، وعلى ماكينة اقتصادية بائسة. قد لا تكتمل هذه الثورة، وقد لا تصل الى اهدافها، بل قد لا تكون تلك الأهداف واضحة لمن يقودون المسيرة، وقد يدخل الاتحاد السوفياتي في حالة وسيطة بين ماضيه ومستقبله... ولكن العودة للوراء اصبحت على الارجح مستحيلة، ولا احد على الاطلاق يجرؤ فعلاً على المطالبة بها. والثورة الحاصلة الآن في موسكو هي في الآن معاً مصدر قوة غورباتشوف ومصدر ضعفه لانها وصلت الى حد اللاعودة الى السابق، ولانها، في الآن معاً، امست قادرة على الاستمرار في غياب من اطلقها.

بقي على السوفيات ان يدركوا انهم عاجزون عن القرار المستقل في شان مستقبلهم، مثلهم مثل شعوب هذه القرية الكبرى التي اسمها كرتنا الارضية. ان القرار المستقل لم يعد اليوم امراً مطلقاً، ومستقبل الحكم في موسكو، واسمه، وعنوانه، امور لن تتقرر في موسكو وحدها. انما هي نتاج لمساومة دائمة بين ما يقرره السوفيات لانفسهم وما يريده العالم منهم. فاعادة البناء الاقتصادي مرتبطة لا بالتشريعات الجديدة وحدها، وانما بقرارات الدعم والتوظيف والاستثمار التي قد تتخذها واشنطن وبون ولندن او قد تانف عنها.

وان كان السوفيات قد فهموا تماماً انهم على عتبة نظام ايديولوجي - اقتصادي - سياسي جديد، فانه عليهم الآن ان يستوعبوا ايضاً ان العالم قد تغير كثيراً منذ الثورة البولشفية التي ادخلتهم في النظام البائد. فان كان العالم قد وقف ساكناً امام انتصار الشيوعية وارساء دعائمها، فانه اليوم شريك ضروري في عملية بناء الاقتصاد واعادة تركيب الاتحاد. وان كان الروس قد دخلوا الشيوعية سنة ١٩١٧ بمفردهم، فهم اليوم عاجزون عن الخروج منها بدون عون الدول الاخرى المهمة في العالم. لقد تعلمنا جميعاً ان الاستقلال قد اصبح مسالة نسبية في هذا العالم المتداخل، المتواصل، المتكامل، وان الاوان ليشاركنا الرفاق السوفيات طعم الاستقلال المنقوص. وهو طعم مر!

---

* استاذ العلوم السياسية في جامعة باريس الاولى.